دكتور
أحمد هنداوي هلال
أستاذ البلاغة والنقد
جامعة الأزهر



مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٢٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٢٣٩٠٣٧٤٦

آيات التحدى ودقائق فى نظمها

دراسة بيانية - موازنة

اسم المؤلف: الدكتور أحمد هنداوى هلال

الطبعة الأولى: ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة.

٨٠ صفحة ١٤ × ٢٠ سم

رقم الإيداع : ٢٣٢١١/ ٢٠١١

الترقيم الدولى: I.S.B.N.

977-225-294-5



دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

هلال، أحمد هنداوى

آيات التحدى ودقائق فى نظمها:

دراسة بيانية - موازنة /

أحمد هنداوى هلال. - ط ١، -

القاهرة: مكتبة وهبة، ٢٠١١

٨٠ ص، ٢٠ سم

تدمك ٩٧٧ ٢٢٥ ٢٩٤ ٥

١ - الأحاديث - شرح

أ - العنوان

ديوى ٢٢٥

آيات التحدى ودقائق فى نظمها
دراسة بيانية - موازنة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الأمين الذى آتاه الله جوامع الكلم، ورزقه حسن البيان، وطلاوة اللسان، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

(وبعد)

فهذا بحث نشر فى مجلة كلية اللغة العربية - فرع جامعة الأزهر بالمنوفية - العدد الثالث عشر ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م وكان أحد البحوث التى تقدمت بها للترقية إلى درجة أستاذ مساعد فى البلاغة والنقد.

وقد أشاد به الأستاذ الدكتور محمد محمد أبو موسى الذى حكَّمته الكلية فى تقويمه، وقال : إنه بحث « فيه فهم، وله هدف، وقد اجتهد فى جمع مادة علمية نافعة، ونظمها، ودرسها » وأضاف أن « صاحبه مشكور على اجتهاده، واحترامه لنفسه » .

وقد رأيت أن أعيد طباعة هذا البحث خدمة لطلاب العلم الذين لم يتهيأ لهم الاطلاع عليه فى مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية آنذاك.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه وسلم.

دكتور

أحمد هنداوى هلال

طنطا فى ١٠ من رمضان ١٤٣١هـ

الموافق ٢٠ من اغسطس ٢٠١٠م

آيات التحدى ودقائق فى نظمها
دراسة بيانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد

فقد كان الإسلام هو الدين الذى ختم الله به الرسالات، وكان رسول الله محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يؤيد رسله، وأنبياءه بمعجزات تشد أزرهم، وتساند دعوتهم، وكانت هذه المعجزات تأتى مناسبة لمن أرسلوا إليهم، وبعثوا فيهم، ومتفقة مع ما برعوا فيه، ومهروا فى أدائه، فلما كان السحر فاشيًا عند فرعون وقومه، جاءهم موسى عليه السلام بالعصا على صورة ما يصنع السحرة، تلقفت ما صنعوا، ولما كان الطب فاشيا فى قوم عيسى عليه السلام، كانت معجزته إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص[1] وكذلك لما كان

---

(١) ينظر فتح البارى، بشرح صحيح البخارى، لابن حجر العسقلانى ٨/ ٦٢٣ الطبعة الأولى، دار الريان للتراث ١٤٠٧هـ.

العرب أمة بيان وفصاحة، وبلاغة، وبراعة، كانت معجزة محمد ﷺ قرآنًا عربيًّا بلغ الغاية القصوى من الفصاحة، والذروة العليا من البلاغة، وقد انقضت معجزات الأنبياء السابقين عليهم السلام بانقضاء زمنهم، وحتى معجزات الرسول ﷺ غير القرآن مثل انشقاق القمر، وحنين الجذع، ونبع الماء من بين أصابعه، قد انقضت بانقضاء وقتها بعد أن أدت رسالتها، وحققت الغرض منها.

أما القرآن فهو معجزة الرسول الخالدة الباقية[١] وقد قال ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»[٢] فلم يعتد في هذا الحديث بالمعجزات الحسية التي أيده الله بها، لأنها غير خالدة، ولا ترقى إلى درجة القرآن الكريم، ولذلك قال أحد كبار الباحثين: «والحصر المفهوم من كلمة إنما في قوله ﷺ (وإنما كان الذى أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ) ليس حقيقيًّا، وإنما هو ادعائي؛ لأن القرآن هو

---

(١) ينظر إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي ٧ / ١٣٣٨ ط دار الشعب، والبرهان في علوم القرآن، للزركشي ٢ / ٩٤ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم مكتبة دار التراث.

(٢) فتح الباري ٨ / ٦١٩.

معجزة المعجزات، وآية الآيات، فكأن المعجزات الحسية الأخرى لا تذكر بجانب القرآن الكريم»[1].

ومنذ أن صدع الرسول بدعوته، وجهر بأمر ربه، وهو يقابل من قومه بصنوف الأذى، والاضطهاد، وتقابل دعوته بالرفض والنكران حتى وصفوه ﷺ بأنه ساحر، أو مجنون، ووصفوا القرآن بأنه سحر يؤثر، وأنه أساطير الأولين فتحداهم الله أن يأتوا من عند أنفسهم بقرآن يشبهه، أو بعشر سور مثله، أو بسورة مثله، أو بحديث مثله.

وقد عجزوا عن الإتيان بشيء مما تحدوا به[2] وهم أرباب البيان ، وطلقاء اللسان، وعشاق الكلمة، والمبرزين في ميدان الشعر والنثر، وكان هذا العي، وذلك الحصر، برهانًا ساطعًا، وحجة دامغة على صدق رسول الله ﷺ في تبليغه عن ربه[3].

---

(١) من مقال (لكل نبي معجزة والقرآن معجزة المعجزات) للدكتور محمد أبو شهبة - رحمه الله - ص٧١٩ مجلة الأزهر عدد شوال ١٣٩٢هـ.

(٢) معنى التحدي في لغة العرب المغالبة، والمباراة يقال تحدى أقرانه إذا باراهم ونازعهم الغلبة، وتحدى صاحبه القراءة، والصراع لينظر أيهما أقرأ وأصرع. أساس البلاغة للزمخشري (حدد).

(٣) ينظر مجمع البيان في تفسير القرآن، للطبرسي ١/١٣٧ مكتبة الحياة - بيروت.

وهأنذا أذكر آيات التحدى على حسب ترتيبها فى المصحف:

١ - قال الله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣].

٢ - وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس: ٣٨].

٣ - وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود: ١٣].

٤ - وقال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

٥ - وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤].

وقد أورد بعضهم ضمن آيات التحدى قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [القصص: ٤٩] ولكننى فضلت عدم تناولها ضمن هذه الآيات، لأنها ليست خاصة بالقرآن.

* * *

مراتب التحدى

كان من عادة العرب ودأبهم أن يتحدى بعضهم بعضًا فى مقارضة الشعر، وتدبيج الخطب، ثقة منهم فى قوة طبعهم، وذلاقة ألسنتهم[1].

وقد سلك بهم القرآن طريقهم التى ألفوها، وسار على نهجهم الذى كانوا يتبعونه، فتحداهم صراحة فى الآيات التى سلف ذكرها أن يأتوا بمثله، أو بعضه.

وإذا كان النظم القرآنى الجليل قد أبرز التحدى فى صور مختلفة، فطلب منهم الإتيان بمثله، أو بعشر سور، أو بسورة واحدة، أو بحديث مثله، فهل هناك وشيجة ترابط بين هذه الصور، أو أن كل صورة منها قائمة بذاتها، مستقلة بنفسها؟

وإذا كانت هناك رابطة فهل تدرج القرآن معهم فى هذه التحديات من الكثير إلى القليل، أو أن الأمر جاء على العكس من

---

(١) ينظر إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعى ص١٩٠، ١٩١ المكتبة التجارية الكبرى ط السابعة ١٣٨١هـ.

ذلك؟ هذا ما ستحاول فى هذه الصفحات - إن شاء الله - الإجابة عنه، وإلقاء الضوء عليه، وقد ذهب العلماء فى تناول هذه التحديات مذاهب شتى، وسلكوا فى تبيانها طرائق متباينة، وأشهر آرائهم فى هذا الشأن، وأكثرها تداولاً بين العلماء أن القرآن تدرج معهم فى تلك التحديات من الكثير إلى القليل، ومن الصعب إلى السهل، فتحداهم أولاً بالقرآن كله، ثم بعشر سور، ثم بسورة واحدة[1].

فعند هؤلاء العلماء أن مراتب التحدى ثلاث، ويمكن أن يوصف هذا الرأى بأنه رأى جمهور العلماء، وسوادهم الأعظم، وهو فى منظورهم يتفق مع العقل، ويتسق مع سنن التحدى بين الناس؛ لأنه « ... كمن يتحدى صاحبه بتصنيفه فيقول ائتنى بمثله، ائتنى بنصفه، ائتنى بربعه، ائتنى بمسألة منه... »[2].

ويبدو أن الشيخ عبد القاهر الجرجانى - رحمه الله - كان من أوائل القائلين بهذا الرأى؛ لأنه أشار إليه إشارة عابرة فى قوله :

---

(١) أغفل أصحاب هذا الرأى التحدى فى آية سورة الطور، وسيجىء - إن شاء الله - فيما بعد الكلام حوله .

(٢) التفسير الكبير، للإمام فخر الدين الرازى ١ / ١ /١٢٨ طبعة دار الفكر بيروت ١٩٧٨م.

« . . . إنكم – يقصد العرب – لا تقدرون على أن تأتوا بمثله، ولا بعشر سور منه، ولا بسورة واحدة، ولو جهدتم جهدكم، واجتمع معكم الجن والإنس»[1] وإن كان لم يذكر صراحة أنها مراتب يتبع بعضها بعضًا، وتتدرج من الكثير إلى القليل إلا أن ذلك مفهوم من ترتيب كلامه، ووضع كل مرتبة فى موضعها المناسب لها.

وقد حدد صاحب الطراز هذه المراتب تحديداً دقيقًا، وبينها بيانًا كافيًا حين قال: «إنه عليه السلام تحدى به – أى بالقرآن – العرب الذين هم النهاية فى الفصاحة والبلاغة، والغاية فى الطلاقة، والذلاقة... وقد نزلهم الله فى التحدى على ثلاث مراتب: الأولى بالقرآن كله فقال تعالى: ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴾ [الإسراء: ٨٨] الثانية بعشر سور منه كما قال تعالى: ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ**

(١) الرسالة الشافية، للشيخ عبدالقاهر الجرجانى ص١٢٠ ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله وآخر. ط ثالثة، دار المعارف.

مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ [هود : ١٣] الثالثة بسورة واحدة كما قال تعالى : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٣] ... فدلت هذه الآيات على التحدى مرة بالقرآن كله، ومرة بعشر سور، ومرة بسورة واحدة، وهذا هو النهاية فى بلوغ التحدى »[١] .

وقد تناقل هذا الرأى الخلف عن السلف ممن يقولون به، ويؤمنون بتناسقه، ودقة ترتيبه، ولست فى حاجة إلى أن أدعم ذلك بكثير من النقول، فسيزداد ذلك وضوحًا فيما يأتى إن شاء الله تعالى .

* * *

---

(١) الطراز، للإمام العلوى ٣ / ٣٦٩ ، ٣٧٠ دار الكتب العلمية بيروت .

مراتب التحدى عند الإمام فخر الدين الرازى

لم يقف الإمام الرازى بمراتب التحدى عند هذه المراتب الثلاث التى سلفت، بل زاد عليها فى بعض المواضع من تفسيره مرتبة رابعة، وجعلها فى بعض المواضع ست مراتب؛ فقد جعلها أربعًا عند تفسير قوله تعالى فى سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ..﴾ [الإسراء: ٨٩] فقال: «وهذا الكلام يحتمل وجوهًا: أحدها أنه وقع التحدى بكل القرآن كما فى هذه الآية، ووقع التحدى أيضًا بعشر سور منه كما فى قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: ١٣] ووقع التحدى بالسورة الواحدة كما فى قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] ووقع التحدى بكلام من سورة واحدة كما فى قوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ [الطور: ٣٤] فقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾[1] يحتمل أن يكون

---

(١) فسر الإمام الرازى قبل هذه الآية مباشرة قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ﴾ الآية ولم يذكر فى تفسيرها شيئًا عن مراتب التحدى وأحال على ما ذكره حول التحدى على ما قاله عند تفسير آية البقرة.

المراد منه التحدى كما شرحناه مع أنهم مع ظهور عجزهم فى جميع هذه المراتب، بقوا مصرين على كفرهم»[1].

جعل هذه المراتب فى أول كلامه وجوهًا دون ترتيب، ولكن قوله فى آخره: ثم إنهم مع ظهور عجزهم فى جميع هذه المراتب... يدل على أنها عنده مراتب محددة، يأخذ بعضها بحجزة بعض، ويقوى ذلك ويؤازره أنه حدد هذه المراتب، وصرح بهذا الترتيب أثناء تفسيره لسورة يونس فقال:

«واعلم أنه قد ظهر بهذا الذى قررناه أن مراتب تحدى رسول الله ﷺ بالقرآن ستة: فأولها: أنه تحداهم بكل القرآن كما قال: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] وثانيها: أنه عليه السلام تحداهم بعشر سور قال تعالى: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: ١٣] وثالثها: أنه تحداهم بسورة واحدة كما قال: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] ورابعها: أنه تحداهم بحديث مثله فقال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ [الطور: ٣٤] ...»[2].

---

(١) التفسير الكبير ١١/١/٥٦.

(٢) المصدر السابق ٩/١/١٠٢.

واضح من كلام الإمام الرازي الآنف الذكر أنه اعتد بالمراتب الثلاث التى ارتضاها جمهور العلماء، وأضاف إليها رابعة، وخامسة، وسادسة (سأرجئ الكلام الآن عما قاله فى المرتبة الخامسة والسادسة).

وقد اعتبر التحدى فى آية الطور مرتبة رابعة عند تفسير آية الإسراء الذى نقلته من قبل، وجعل المراد (بحديث مثله) كلامًا من سورة مثله، وهو - حسب علمي - أول من جعل هذه الآية مرتبة رابعة.

وقد تابعه على ذلك بعض المفسرين وأهل العلم، فقال صاحب الفتوحات الإلهية عند تفسير آية يونس: «مراتب تحدى رسول الله ﷺ بالقرآن أربعة، أولها: أنه تحداهم بكل القرآن كما قال تعالى: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ**﴾ [الإسراء: ٨٨] ثانيها: أنه تحداهم بعشر سور قال تعالى: ﴿**فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ**﴾ [هود: ١٣] ثالثها: أنه تحداهم بسورة واحدة كما قال تعالى: ﴿**قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ**﴾ [يونس: ٣٨] رابعها: أنه تحداهم بحديث مثله كما قال تعالى: ﴿**فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ**﴾ [الطور: ٣٤][(١)].

(١) ينظر الفتوحات الإلهية (حاشية الجمل على الجلالين) ٢ / ٣٥٠ ط عيسى الحلبى.

ويبدو أنه وافق الإمام الرازى على كون المراتب أربعًا، فنقلها من كلامه الذى كتبه عند تفسير آية يونس، وأغمض عينيه عن المرتبتين الخامسة والسادسة اللتين ذكرهما، وتشابه كلماتهما خير شاهد على ذلك، ويعزز هذا الفهم أنه ذكر تلك المراتب عقب نقله رأيًا للإمام الرازى فى إعجاز السور القصيرة أو عدم إعجازها أبداه عند تفسير آية يونس(١).

واعتبر الدكتور محمد حسين الذهبى - رحمه الله - مراتب التحدى أربعة، ويظهر أنه متأثر بالإمام الرازى، وسائر على نهجه، فقد قال بعد أن ذكر المراتب الثلاث المعهودة « ... ثم نزل إلى أدنى درجات التحدى فقال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤]. فعجزوا عن أن يأتوا بحديث مماثل له أى حديث كان، طال، أم قصر ولزمهم العجز عن معارضته هم، ومن وراءهم إلى يوم القيامة »(٢).

واعتبار التحدى فى آية الطور مرتبة رابعة كما ذهب إليه الإمام الرازى، ومن شايعه ليس محل اتفاق بين العلماء، فقد فسر

---

(١) ينظر الفتوحات الإلهية، والتفسير الكبير ٩/ ١/ ١٠١.
(٢) مجلة الوعى الإسلامى ص١٧، ١٨ عدد شوال ١٣٩٢هـ.

الإمام القرطبى الحديث فى آية الطور بالقرآن، فقال: « ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ أى بقرآن يشبهه من تلقاء أنفسهم إن كانوا صادقين فى أن محمداً افتراه»[1].

وقال الشيخ الشنقيطى عند تفسير آية الطور: « ... وتحداهم فى سورة الطور هذه به كله - أى بالقرآن - ... وقد أطلق جل وعلا اسم الحديث على القرآن فى قوله هنا (فيأتوا بحديث مثله) كما أطلق عليه ذلك فى قوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] الآية، وقوله: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يوسف: ١١١] الآية»[2].

وجاء فى تفسير المنار أن التحدى فى آية الطور بجملة القرآن[3].

وقد يدعم هذا المنحى ويعضده أن الإمام السيوطى وضع آية الطور مكان آية الإسراء، وجعلها تمثل المرتبة الأولى من التحدى

---

(١) تفسير القرطبى / ٦٢٤٣ ط الشعب.

(٢) أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن، محمد أمين الشنقيطى ٧ / ٦٩٣، ٦٩٤ ط عالم الكتب - بيروت.

(٣) تفسير المنار، الأستاذ الشيخ محمد عبده ٦ / ١٢ / ٣٨ تاليف السيد محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢م.

فقال فى أحد المواضع من إتقانه: « . . . ولما جاء به – أى بالقرآن – النبى ﷺ إليهم، وكانوا أفصح الفصحاء، ومصاقع الخطباء، وتحداهم على أن يأتوا بمثله، وأمهلهم طول السنين فلم يقدروا كما قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤] ثم تحداهم بعشر سور منه فى قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾، ثم تحداهم بسورة . . . »[١].

ويبدو أن وجهة هؤلاء العلماء الذين جعلوا التحدى فى آية الطور نظيراً ونداً للتحدى فى آية الإسراء – قوية؛ لأنهم احتكموا إلى أسلوب القرآن فى استعماله كلمة حديث مراداً بها القرآن[٢] والقرآن يفسر بعضه بعضاً – كما يقولون – وبناء على ذلك يكون التحدى فى آية الطور ليس بكلام من سورة واحدة، ولا يمثل مرتبة رابعة، كما ذهب إليه الإمام الرازى، ومن لف لفه، وحذا حذوه، ويبقى رأى جمهور العلماء القائلين بأن مراتب التحدى ثلاث أرسخ قدما،وأقوى دليلاً.

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن، للسيوطى ٤/٢٢ ط ثالثة، دار التراث ١٤٠٥هـ.

(٢) وينظر فى ذلك أيضاً الكشاف ٢/٢٧٨، ٣/٣٤٤ دار المعرفة – بيروت.

مرتبتان: خامسة وسادسة أيضًا عند الإمام الرازى:

أشرت – فيما سبق – إلى أن الإمام الرازى لم يكتف بجعل مراتب التحدى أربعًا، بل زاد عليها خامسة، وسادسة، فقال عند تفسير آية يونس ضمن النص الذى نقلت منه أربعة المراتب التى سبق ذكرها:

« . . . وخامسها: أن فى تلك المراتب الأربعة كان يطلب منهم أن يأتى بالمعارضة رجل يساوى رسول الله ﷺ فى عدم التلمذ[1] والتعلم، ثم فى سورة يونس طلب منهم معارضة سورة واحدة من أى إنسان سواء تعلم العلوم، أو لم يتعلمها، وسادسها: أن فى المراتب المتقدمة تحدى كل واحد من الخلق، وفى هذه المرتبة تحدى جميعهم، وجوز أن يستعين البعض بالبعض فى الإتيان بهذه المعارضة كما قال: ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨، وهود: ١٣] وههنا آخر المراتب»[2].

---

(١) تكررت كلمة (التلمذ) فى كلامه، وكذلك الفعل (يتلمذ) ولعله من الرباعى المجرد مثل دحرج كما يظهر من وضع صاحب لسان العرب لمادته عقب مادة (تلم) وعلى ذلك يبدو – والله أعلم – أن تاء المصدر (فعللة) قد سقطت من كلمة التلمذ فى الطباعة أو من النساخ، ويؤيد هذا عطف المصدر (التعلم) عليها.

(٢) التفسير الكبير ٩ / ١ / ١٠٢.

والقول بهاتين المرتبتين من مراتب التحدى - حسب علمي- قول انفرد به الإمام الرازى، ولعله اجتهاد خاص منه يثاب عليه - إن شاء الله تعالى - سواء أصاب، أو أخطأ؛ لأنه نبيل الهدف، شريف الغاية، ولن أقف أمام هاتين المرتبتين طويلاً إلا أنه قد بدت لى بعض الملاحظات حول ما قاله فيهما أريد أن أسجلها، وقد تعلمنا من أفاضل هذه الأمة، وسلفها الصالح أن كل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد إلا المعصوم ﷺ.

إحداها : أنه فرق بين التحدى فى آية يونس، والتحدى فى آية هود من حيث تحدى جميع الخلق، أو تحدى كل واحد منهم مع أن كلتا الآيتين ختمت بقوله تعالى: ﴿ **وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ فتخصيص إحداهما دون الأخرى بمزية يعتبر تخصيصاً بلا مخصص، ودعوى بلا بينة.

ثانيتها : أنه رجح عند تفسير آية البقرة أن الضمير فى (مثله) عائد إلى القرآن، وهنا جعله راجعًا إلى رسول الله ﷺ، وسيأتى لهذا مزيد إيضاح فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ثالثتها : القول بأن التحدى كان فى بعض الآيات موجهًا إلى من تعلم العلوم، وفى بعضها الآخر موجهًا إلى من لم يتعلم هذه العلوم لا مستند له من منطوق الآيات، ولا ظل له فى نظمها البديع.

حول تلاؤم مراتب التحدى لترتيب النزول

أصبح واضحًا أمامنا – مما سبق – أن مراتب التحدى التى ارتضاها جمهور العلماء ثلاث:

أولاها : تحداهم الله عز وجل أن يأتوا بمثل القرآن.

ثانيتها : تحداهم أن يأتوا بعشر سور منه.

ثالثتها : تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة منه.

وهذه المراتب تم التحدى بها فى مكة قبل هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، وبعد الهجرة وفى مجتمع المدينة استمر التحدى بالسورة الواحدة فى قوله تعالى: ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ**﴾ [البقرة: ٢٣][١] وهذا الترتيب يساير المنطق؛ لأنه تدرج معهم من الصعب إلى السهل،

---

(١) ينظر (من بدائع النظم القرآنى) للدكتور السيد عبد الفتاح حجاب ١ / ١٣٨، دار الاعتصام.

وخفف المطلوب منهم، وهو فى الوقت نفسه يدل على ثقة المتحدى فى كلامه، وأن المقصودين بالتحدى لن يصلوا إلى مواجهته، مهما ضعف القدر المطلوب منهم[1].

ومجىء هذه المراتب على تلك الصورة يقتضى ويتطلب أن تكون سورة الإسراء نزلت أولاً، ثم سورة هود، ثم سورة يونس وسورة البقرة.

وقد يممت وجهى صوب المصحف الشريف، والمصادر المعتمدة أتلمس معرفة ترتيب نزول هذه السور، وأتثبت منه فوجدت أن سورة الإسراء نزلت أولاً، وتبعتها فى النزول مباشرة سورة يونس، ونزلت عقبها سورة هود، وكانت سورة البقرة أول ما نزل بالمدينة[2].

ولا شك أن ترتيب نزول هذه السور على تلك الشاكلة

---

(١) ينظر معجزات الرسول لفضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ص٢٥ ط أخبار اليوم.

(٢) فى المصحف: نزلت يونس بعد الإسراء، ونزلت هود بعد يونس، وينظر بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز، للفيروزابادى ١/ ٩٨، ٩٩ تحقيق الأستاذ محمد على النجار، المكتبة العلمية، بيروت، والبرهان فى علوم القرآن، للزركشى ١/ ١٩٣، ١٩٤ تحقيق محمد أبو الفضل، مكتبة دار التراث. والإتقان فى علوم القرآن، للسيوطى ١١/ ٢٦، ٢٧.

يعتبر صدعًا فى بنيان مراتب التحدى، وعيبًا يقدح فى سلامتها؛ لأنه لا تلاؤم، ولا توافق بين هذه المراتب، وترتيب نزول الآيات التى وردت فيها، فالمفروض أن تكون سورة هود قد نزلت قبل سورة يونس، حتى تستقيم هذه المراتب، وقد صرح بذلك الإمام الرازى عند تفسير آية هود فقال:

« . . . واعلم أن التحدى بعشر سور لابد وأن يكون سابقًا على التحدى بسورة واحدة، وهو مثل أن يقول الرجل لغيره اكتب عشرة أسطر مثل ما أكتب، فإذا ظهر عجزه عنه، قال قد اقتصرت منها على سطر واحد مثله»[1].

ويتابع الإمام الرازى كلامه قائلاً:

« . . . إذا عرفت هذا فتقول التحدى بالسورة الواحدة ورد فى سورة البقرة، وفى سورة يونس. . . أما تقدم هذه السورة – أى سورة هود – على سورة البقرة فظاهر؛ لأن هذه السورة مكية، وسورة البقرة مدنية، وأما فى سورة يونس، فالإشكال زائل أيضًا؛ لأن كل واحدة من هاتين السورتين مكية، والدليل الذى ذكرناه يقتضى أن تكون سورة هود متقدمة فى النزول على سورة يونس حتى يستقيم الكلام الذى ذكرناه»[2].

---

(١) التفسير الكبير ٩ / ١ / ٢٠٣.

(٢) نفس المصدر والموضع.

وكلامه صريح فى أن التحدى بعشر سور يتحتم أن يكون سابقًا على التحدى بسورة واحدة؛ لأن العادة جرت بين الناس أن يبدأ التحدى بالصعب ثم يخفف إلى السهل شيئًا فشيئًا.

وقد توقفت أمام قوله « .. وأما فى سورة يونس فالإشكال زائل أيضًا؛ لأن كل واحدة من هاتين السورتين مكية ». أتأمله، وأنعم النظر فيه؛ لأنه قد أشكل عليَّ فى مبدأ الأمر، وقد بدا لى أنه يحتمل وجهين، أحدهما: أنه لا إشكال بين سورة يونس، وسورة البقرة؛ لأن سورة يونس مكية، كما أن سورة هود مكية، ويكون هذا بيانًا للواقع، ولا جديد فيه. ثانيهما: أنه لا إشكال بين سورة هود، وسورة يونس، لأن كلا منهما مكية، وهذا يحتاج إلى توضيح لأن نفى الإشكال بين السورتين لا يتأتى إلا إذا كانت سورة هود متقدمة فى النزول، أما إذا كانت سورة يونس متقدمة، فالإشكال ما زال قائمًا، اللهم إلا إن كان من رأيه أن سورة هود متقدمة فى النزول، كما يشعر بذلك قوله - فيما سبق - « ... والدليل الذى ذكرناه يقتضى أن تكون سورة هود متقدمة فى النزول على سورة يونس ».

[وقضية ترتيب النزول خارجة عما نحن فيه].

وقد حاول بعض المفسرين أن يذللوا التعارض بين مراتب التحدى، وترتيب نزول الآيات التى وردت فيها، فآثروا المحافظة على مراتب التحدى، وجعلوا ترتيب النزول تابعًا لها، فقد ذكر الإمام الألوسى أن التحدى فى سورة هود، وإن تأخر تلاوة إلا أنه متقدم نزولاً، إذ لا معنى للتحدى بعشر سور لمن عجز عن الإتيان بسورة واحدة يقول فى ذلك:

« ... والكثير على أن هذا التحدى - يقصد التحدى فى سورة هود - وقع أولاً، فلما عجزوا، تحداهم ﴿بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] كما نطقت به سورة البقرة، ويونس وهو وإن تأخر تلاوة متقدم نزولا، وأنه لا يجوز العكس إذ لا معنى للتحدى بعشر لمن عجز عن التحدى بواحدة»[١].

فهو يرى أن التحدى بعشر سور فى سورة هود متقدم نزولاً على التحدى بسورة واحدة فى سورة يونس، وفى هذا دلالة على أنه يحافظ على تدرج مراتب التحدى، ويجعل ترتيب النزول متسقًا معها، وإن أدى ذلك إلى مخالفة ما ذكره الثقات، وما دون فى المصحف الشريف، وتناقله الخلف عن السلف من أن سورة هود نزلت بعد سورة يونس.

---

(١) روح المعانى ١٢٤ / ٢٠ ط دار الفكر - بيروت ١٣٩٨هـ.

وذكر صاحب الفتوحات الإلهية عند تفسير آية يونس مراتب التحدى، واعتبر التحدى فى آية الإسراء يمثل المرتبة الأولى، والتحدى فى آية هود يمثل المرتبة الثانية، والتحدى فى سورة يونس يمثل المرتبة الثالثة[1] وكرر ذلك عند تفسير آية هود، فذكر أن الله «تحداهم بكل القرآن أولا كما فى سورة الإسراء... ثم تحداهم بعشر سور كما فى هذه السورة – أى سورة هود – ثم بسورة كما فى البقرة ويونس»[2] ولكنه قال بعد ذلك مباشرة:

«... فالإسراء قبل هود نزولاً، ويليها هود، ويليها يونس، ويليها البقرة»[3] فنجده – أيضًا – قد جعل ترتيب النزول موافقًا لمراتب التحدى، ومناسبًا لها، لأنه جعل سورة يونس تلت سورة هود نزولاً، وهو خلاف المتداول المعلوم فى ترتيب النزول من أن سورة يونس نزلت قبل هود – كما سبق بيانه – وهنا قد يتبادر إلى أذهان الذين تتبعوا ما مضى من كلام أهل العلم حول مراتب التحدى، وترتيب نزول كل من سورتى هود، ويونس هذا التساؤل:

ألا يمكن أن تكون آية يونس مدنية وضعت فى سورة مكية،

---

(١) سبق نقل مراتب التحدى عنده.

(٢) الفتوحات الإلهية ٢ / ٣٨٤.

(٣) المرجع السابق نفس الموضع.

كما هو الشأن فى كثير من الآيات والسور، حتى تتلاءم مراتب التحدى مع ترتيب النزول؟ والإجابة عن هذا التساؤل نجدها فى المصحف الشريف عند مطلع سورة يونس، فهى سورة مكية ما عدا الآيات ٤٠، ٩٤، ٩٥، ٩٦ فإنها نزلت بالمدينة[١] وآية التحدى فيها هى الثامنة والثلاثون، وهى فى حيز المكيات[٢].

وقد حكى صاحب تفسير المنار رواية عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن سورة يونس مدنية، ولكنه - أعنى صاحب المنار - رجح الرواية الأخرى الموافقة لرأى الجمهور، لأن أسلوبها أسلوب السور المكية يقول فى هذا الشأن:

«وأول ما نزل فى هذا المعنى قوله تعالى فى سورة الإسراء ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ ﴾ إلخ الآية [الإسراء: ٨٨] ثم نزل بعدها آية يونس ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ ... الآية [يونس: ٣٨] ثم آية هود ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ [هود: ١٣] وهذه السور الثلاث نزلت بمكة

---

(١) فى الإتقان فى علوم القرآن: المشهور أن سورة يونس مكية وعن ابن عباس روايتان ١١ / ٣١ واستثنى منها آيات ١١ / ٤٠.

(٢) ينظر الإعجاز البيانى للقرآن، للدكتورة بنت الشاطئ ص٦٧ ط. دار المعارف - ثانية.

متتابعات كما رواه العلماء بهذا الشأن، ولكن فى رواية عن ابن عباس أن سورة يونس مدنية، والرواية الأخرى هى الموافقة لقول الجمهور، ولأسلوبها فإنه أسلوب السور المكية»[1]. وإذا تأكد لنا أن سورة يونس مكية، وآية التحدى بها مكية أيضًا، وأن سورة هود نزلت بعد سورة يونس، فإن ترتيب نزول هذه الآيات يبقى متعارضًا متنافيًا مع مراتب التحدى الثلاث التى سبق القول عنها.

* * *

---

(١) تفسير المنار ١/١٥٩، ١٦٠.

لا ارتباط بين آيات التحدى

اتضح مما تقدم أنه من المتعذر الجمع والتوفيق بين مراتب التحدى الثلاث، وترتيب نزول بعض الآيات التى جاءت فيها، وظهر كذلك أن ترتيب النزول، معلوم لدى العلماء الثقات، ومدون فى المصاحف، وفى المصادر المعتمدة، وارتضته الأمة جيلاً بعد جيل.

أما تدرج مراتب التحدى، وجعلها ثلاثًا، فيبدو أنه اجتهاد خاص ممن قالوا به، واتخذوه رأيًا لهم، لأنه من وجهة نظرهم ترتيب معقول، ومتفق مع طبيعة التحدى، ونظام المعارضة والمغالبة، وليس له مستند من حديث رسول الله ﷺ، أو من كلام أصحابه - رضوان الله عليهم أجمعين - .

ولعله من أجل ذلك قال الإمام العلوى، وهو يتكلم عن التحدى ومراتبه: « . . . وإنما قلنا إنه عليه السلام تحداهم بالقرآن لما تواتر من النقل بذلك فى القرآن »[1].

---

(١) الطراز ٣ / ٣٦٩.

وفى هذا دلالة على أن قضية التحدى برمتها، فضلاً عن ترتيب آيات التحدى لا دليل عليها إلا آيات القرآن الكريم.

وصرح الشيخ محمد عبده بأن «هذا الترتيب لم يصح به نقل، بل المروى فى ترتيب النزول يخالفه، فإن سورة هود نزلت بعد سورة يونس»[1].

وذكر الأستاذ سيد قطب أن هذا الترتيب لا دليل عليه فقال:

«قال المفسرون القدامى إن التحدى كان على الترتيب بالقرآن كله، ثم بعشر سور، ثم بسورة واحدة، ولكن هذا الترتيب ليس عليه دليل..»[2] ومما يؤكد عدم وجود دليل على تدرج مراتب التحدى، وترابطها أن من علماء الأمة، وكبار مفكريها من قلب هذا الترتيب، وذهب إلى القول بعكسه ونقيضه، واختار أن الله تحداهم أولاً بسورة واحدة، ثم تحداهم بعشر سور، واعتبر التحدى بسورة أشق وأصعب من التحدى بعشر؛ فقد اختار هذا الرأى ابن عطية بعد أن نقله عن المبرد الذى علل هذا الاختيار بأن التحدى وقع أولاً بسورة واحدة مماثلة للقرآن فى نظمه، ومعناه،

---

(١) تفسير المنار ٦ / ١٢ / ٢٩.
(٢) فى ظلال القرآن ٤ / ١٢ / ١٨٦١ ط دار الشروق ١٩٩٠م.

ووعيده، واشتماله على الغيوب، والأخبار، والأحكام، فلما عجزو تحداهم بعشر سور مماثلة له في نظمه وحده دون تقييد بشيء سواه، فوسع عليهم في القدر، لتقوم الحجة عليهم»[1] فلو كان هناك دليل على تسلسل مراتب التحدى على الصورة التي ذكرها جمهور العلماء، ما وجد من يهمله، ويتخذ سبيلاً مقابلة لسبيله، وأكثر من ذلك ذهب الإمام الزركشي في بعض المواضع من برهانه إلى أن التحدى كان أولا بعشر سور، ثم بسورة، وفي النهاية تحداهم بالقرآن فقال:

«واعلم أن النبي ﷺ تحدى العرب قاطبة بالقرآن حين قالوا افتراه فأنزل الله عز وجل عليه ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾ [هود: ١٣] فلما عجزوا عن الإتيان بعشر سور تشاكل القرآن قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ[2] مِّثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨] ثم كرر هذا فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] أي من كلام مثله... فلما

---

(١) نقلاً عن البحر المحيط، لأبي حيان ٥/ ٢٠٨ مكتبة ومطابع النصر الحديثة، الرياض – السعودية، وروح المعاني، للألوسي ١٢٤/ ٢٠، ٢١.

(٢) في البرهان (بسورة من مثله) والصواب ما أثبته، لأن سورة يونس ليس فيها (من).

عجزوا عن أن يأتوا بسورة تشبه القرآن على كثرة الخطباء فيهم والبلغاء قال: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨] فقد ثبت أنه تحداهم به، وأنهم لم يأتوا بمثله لعجزهم عنه»(١).

واضح من كلامه أنه يقصد الترتيب بين هذه الآيات على الصورة التى جاء عليها يدل على ذلك قوله بعد الآية الأولى: فلما عجزوا عن الإتيان بعشر سور تشاكل القرآن قال... وقوله بعد ذلك أيضًا: فلما عجزوا عن أن يأتوا بسورة تشبه القرآن قال... إلخ.

وبذلك يكون العلماء قد قلبوا هذه القضية على وجوهها المختلفة، فمنهم من رأى أن التحدى كان أولاً بالقرآن كله، ومنهم من رأى أن التحدى وقع أولاً بسورة واحدة، ومنهم من رأى أنه كان أولاً بعشر سور، وترتيب النزول لا يساعد على رؤية من هذه الرؤى، بقى من هذه الوجوه القول بأن التحدى جاء على وفق ترتيب نزول هذه الآيات، وفعلا قال به أحد الباحثين المعاصرين مع

---

(١) البرهان فى علوم القرآن ٢ / ٩١.

اختلاف فى توجيه المتحدى به، فذكر أن الله تحداهم أولاً أن يأتوا بمثله، يعاون بعضهم بعضًا فى الإتيان به، وترك لهم الحرية أن يستعينوا فى ذلك بالإنس والجن، كما نطقت بذلك آية الإسراء، فلما عجزوا عن الإتيان بمثله، عاد القرآن إلى تحديهم بما هو أهون من سابقه، فطالبهم أن يأتوا بمثل سورة منه، كما فى آية يونس، ثم تنزل معهم تنزلا آخر، فطلب منهم الإتيان بعشر سور مثله... ولما بلغ بهم العجز نهايته، عاد فنزل معهم فوق ما نزل فى سابقه، فتحداهم أن يأتوا بحديث مثله أى حديث كان، كما فى آية الطور، فعجزوا كذلك، وفى المدينة حاول كفارها أن يرددوا مقالة أهل مكة مع ما رأوا من عجزهم، فعاد القرآن إلى تحديهم، وطلب منهم جميعًا أن يفلحوا فى الإتيان بسورة من مثله، كما فى آية البقرة[1].

وهذا الترتيب، وإن وافق ترتيب النزول[2] إلا أنه ليس

---

(١) قضية الإعجاز القرآنى وأثرها فى تدوين البلاغة العربية، للدكتور عبدالعزيز عبد المعطى عرفة / ٦٢، ٦٣ (بتصرف كثير)، عالم الكتب ط أولى ١٩٨٥م.

(٢) ينظر فى ترتيب النزول بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ١ / ٩٨، ٩٩. والبرهان فى علوم القرآن، للزركشى ١ / ١٩٣، ١٩٤ والإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١١ / ٢٦، ٢٧.

متناسبًا مع طبيعة التحدى، والتدرج من الصعب إلى السهل؛ «فلا معنى للتحدى بعشر لمن عجز عن التحدى بواحدة» كما قال الألوسى عند تفسير آية هود، وقياسًا عليه يمكن القول إنه لا معنى للتحدى بسورة كما فى آية البقرة لمن عجز عن التحدى بأى حديث كان كما ذكر هذا الباحث عند آية الطور.

وهذه الترتيبات المتعددة لمراتب التحدى تؤكد أن المراتب الثلاث عند جمهور العلماء بله غيرها من الترتيبات مبنية على اجتهادات خاصة من القائلين بها، وهى آراء متعارضة، يتبرأ بعضها من بعض، ولا يسلم أى منها من عقبة تعترضه، أو نقد يوجه إليه، ولعله من أجل ذلك جزم الشيخ محمد عبده بأن آيات التحدى ليس بينها وصلة تجمعها، أو ترتيب زمنى يؤلف بينها فقال:

« . . . وإننى أجزم . . . بعد التأمل فى جميع آيات التحدى، وتاريخ نزول سورها أنها لم يكن مراعى بها الترتيب التاريخى فى مخاطبة المشركين كما زعم جمهور المفسرين، بل ذكر كل منها بمناسبة سياق سورته، فسورة الطور التى فيها (أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) وهو تحد بجملته، قد نزلت بعد سورتى يونس وهود اللتين تحداهم فيهما بالعشر بعد الواحدة، وسورة الإسراء نزلت قبلهن، وفيها ذكر عجز

الإنس والجن عن الإتيان بمثله، ولكنه لم يكن تحديًا[1] وكان آخر ما نزل فى التحدى آية سورة البقرة، وهو تحد للمرتابين فيما نزله الله على عبده بأن يأتوا بسورة من مثله...»[2].

وهذا رأى وجيه، جدير بالقبول والاستحسان، فكل تحد قائم بنفسه، فرد في موضعه، مناسب لسورته التى ذكر فيها، متسق مع أحوال نزولها وملابساته لأن «التحدى كان يلاحظ حالة القائلين، وظروف القول، فالقرآن كان يواجه حالات واقعة محددة مواجهة واقعة محددة، فيقول مرة ائتوا بمثل هذا القرآن، أو ائتوا بسورة، أو ائتوا بعشر سور، دون ترتيب زمنى، لأن الغرض كان هو التحدى فى ذاته بالنسبة لأى شىء من القرآن كله، أو بعضه، أو سورة منه على السواء...»[3].

وهذه النظرة لا تهتم بترتيب آيات النزول، ولا بالعلاقة الزمنية بين صور التحدى جميعها؛ لأن ذلك - والله أعلم - ليس مقصودًا، ولا يتعلق به غرض من الأغراض، وهى فى الوقت نفسه

(١) يبدو أن الأستاذ الإمام لا يرى أن فى آية الإسراء تحديًا؛ لأنها ليس فيها أمر صريح بالإتيان بمثله قل فأتوا ... أو فأتوا - مثلاً - .
(٢) تفسير المنار ٦/ ١٢/ ٣٨.
(٣) فى ظلال القرآن ١٢/ ١٨٦٢.

قد أتت على بنيان مراتب التحدى عند الجمهور من قواعده، وجعلته أثراً بعد عين، ويمكن الإضافة إلى ذلك أن كون التحدى فى آية الإسراء بالقرآن كله - كما صرح به جم غفير من أهل العلم - ليس قضية مسلمة، وليست محل إجماع، واتفاق بين العلماء جميعاً لأن سورة الإسراء نزلت بمكة قبل الهجرة، ولم يكن القرآن قد تم نزوله، فضلاً عن أن السور المكية نفسها لم يكن قد اكتمل نزولها بعد، لأن ترتيبها فى النزول الخمسون على المشهور، ونزل بعدها أكثر من ثلاثين سورة بمكة[1].

فالقول بأن التحدى فى سورة الإسراء كان بالقرآن كله ليس ضربة لازب، فقد صرح الباقلانى بأن التحدى فى الإسراء يحمل على القبيل، لا على الجميع؛ «لأنه لم يجعل الحجة عليهم عجزهم عن الإتيان بجميعه من أوله إلى آخره»[2] ونقل صاحب البرهان فى علوم القرآن عنه هذا القول[3].

وقد تجاوز الشيخ أمين الخولى ما قاله الباقلانى بخطوات فسيحة، ومدى بعيد، فرأى أن التحدى فى سورة الإسراء يراد به

---

(١) ينظر الإعجاز البيانى للقرآن الدكتورة بنت الشاطئ ص ٦٧.
(٢) ينظر إعجاز القرآن، للباقلاني ص ٢٥٤ تحقيق السيد أحمد صقر ط رابعة دار المعارف.
(٣) ينظر البرهان فى علوم القرآن ٢ /١٠٨ ، ١٠٩.

ما كان قد نزل من القرآن وقت نزول هذه السورة، إن لم يكن مراداً به على الأرجح ما يصدق عليه اسم القرآن وهو القطعة منه[١].

فهو لا يلتزم بكون التحدى فى آية الإسراء بالقرآن كله، أو جله، ما دامت القضية برمتها لا دليل عليها إلا ما جاء فى القرآن، ويبدو أنه اتخذ من كلمة القرآن التى وردت فى قوله تعالى: ﴿ **بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ** ﴾ دليلاً له ومستنداً، فإنها تطلق على القرآن بتمامه، كما تطلق على كل جزء منه، والذى يشهد بذلك آيات القرآن نفسه - فمثلاً - كلمة القرآن فى قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا...** ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] لا تدل على القرآن كله، بل تدل على جزء منه، لأن الذى يقرأ لا يقرأ القرآن كله، ومثلها كلمة القرآن في قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا** ﴾ [الإسراء: ٤٥] فإنه ينبغى أن يكون المراد بها بعض القرآن، لأن النبى ﷺ لم يكن يقرأ عليهم القرآن كله مرة واحدة[٢].

---

(١) ذكرت الدكتورة بنت الشاطئ أنها وجدت ذلك مكتوباً بخطه حاشية على ص٣٧١ من الجزء الثالث من كتاب الطراز للعلوى. الإعجاز البيانى للقرآن، هامش ص ٦٧.

(٢) ينظر فى هذا مجلة الأزهر عدد رمضان ١٤٠٥هـ مقال الدكتور أحمد إبراهيم مهنا ص١٤٢٠، وكتاب القرآن يتحدى للأستاذ أحمد عزالدين خلف الله ص١٥٧، ١٥٨ مطبعة السعادة ط أولى ١٩٧٧م.

تنكير (سورة) والقدر المتحدى به

كان أقل قدر وقع به التحدى فى الآيات هو (سورة) فى قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨] وقوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣].

وجاءت كلمة (سورة) منكرة فى الموضعين مما يدل على أنه التحدى واقع بأية سورة، طويلة كانت أو قصيرة.

وقد اتخذ بعض أهل العلم من تنكير سورة منطلقا إلى إثبات أن أقل قدر تحدى به هو السورة القصيرة فقال صاحب روح المعانى: «والتنوين فى سورة للتنكير أى ائتوا بسورة ما وهى القطعة من القرآن التى أقلها ثلاث آيات»[١].

وقال أبو حيان:

«طلب منهم الإتيان بمطلق سورة، وهى القطعة من القرآن التى أقلها ثلاث آيات، فلم يقترح عليهم الإتيان بسورة طويلة

---

(١) روح المعانى ١١/١٩٣.

فيتعنتوا فى ذلك، بل سهل عليهم، وأراح عليهم بطلب الإتيان بسورة ما..»[1].

ولما كانت السور القصار مظنة أن يتوهم إمكان الإتيان بمثلها، وبالتالى تكون غير داخلة فى حيز السورالمتحدى بها، فقد نبه بعض الباحثين فى إعجاز القرآن إلى أن هذه السورة معجزة، ومتحدى بها كأخواتها من السور الطوال «لأن الله جعل فى صفة كل سورة أن تكون معجزة دون تعيين»[2].

يقول الرمانى:

«... فإن قال قائل فلعل السور القصار ممكن للناس، قيل له: لا يجوز ذلك من قبل أن التحدى قد وقع بها، فظهر العجز عنها فى قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾[3].

فلم يخص بذلك الطوال دون القصار[4].

---

(١) البحر المحيط ١٠٤/٢١١.

(٢) بيان إعجاز القرآن، للخطابي ص ٢٤ ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن.

(٣) فى كتابه ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ والصواب ما أثبته، لأن سورة البقرة ليس فيها (قل) ولعل ذلك سهو من النساخ، ومن المحققين أيضاً.

(٤) النكت فى إعجاز القرآن، للرمانى ص ١١١ ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن.

وقد خالف الإمام الرازى فى كون قصار السور متحدى بها، وقصر التحدى على كبار السور وطوالها، ولعله كان يعتبر التنكير فى كلمة (سورة) فى آيتى البقرة، ويونس للتعظيم، أو النوعية، أو التكثير، وإن لم يصرح بشىء من ذلك فيما قرأت له، «والجمهور على أن لفظ سورة يصدق بالقصيرة كالطويلة، وهو المتبادر من تنكير السورة، إلا أن يقال إن التنكير للتعظيم، أو لنوع من السور يدل عليه دليل»[1].

يقول الإمام الرازى عند تفسير آية يونس: قوله ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨] هل يتناول جميع السور الصغار، والكبار، أو يختص بالسور الكبار؟ الجواب هذه الآية فى سورة يونس، وهى مكية، فالمراد مثل هذه السورة؛ لأنها أقرب ما يمكن أن يشار إليه[2].

واضح من كلامه أنه جعل الأمر فى قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ متناولاً سورة يونس، وما يماثلها، ومن باب أولى ما يطولها أيضًا، ومعنى ذلك فى منظوره أن السور التى تقصر عن

---

(١) تفسير المنار ٦ / ١ / ٣٠٢.
(٢) التفسير الكبير ٩ / ١ / ١٠١.

سورة يونس، لا يتأبى على قدرة البشر الإتيان بمثلها، وقد ذكر ذلك فى تساؤله عند تفسير آية البقرة، وأشار إلى أن الإتيان بمثل هذه السور ممكن. وفى مقدور الخلق، والقول بأنها فوق طاقتهم يلحق التهمة بالدين يقول فى هذا الشأن:

«فإن قيل قوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] يتناول سورة الكوثر، وسورة العصر، وسورة قل يأيها الكافرون، ونحن نعلم بالضرورة أن الإتيان بمثله، أو بما يقرب منه ممكن، فإن قلتم إن الإتيان بمثل هذه السور خارج عن مقدور البشر، كان ذلك مكابرة، والإقدام على هذه المكابرات مما يطرق التهمة إلى الدين...»[1].

وليس معنى ذلك أنه ينفى عن السور القصار صفة الإعجاز، كلا! فإن من المعلوم أن القوم عجزوا عن معارضة القرآن، ولم يمكنهم الإتيان بمثل سورة قصيرة فضلاً عن الطويلة، ولكنه يجعل إعجاز قصار السور كامنًا فى أن الله صرفهم ومنعهم من الإتيان بأمثالها فقد قال عقب كلامه السابق مباشرة:

«... قلنا فلهذا السبب اخترنا الطريق الثانى، وقلنا إن

---

(١) التفسير الكبير ١/١/١٢٨.

بلغت هذه السورة فى الفصاحة إلى حد الإعجاز، فقد حصل المقصود، وإن لم يكن الأمر كذلك، كان امتناعهم عن المعارضة مع شدة دواعيهم إلى توهين أمره معجزًا، فعلى هذين التقديرين يحصل المعجز»[1].

ويلحظ القارئ لهذا الاختيار أنه جعل القرآن نوعين، نوعًا يشمل السور الطوال، وهو معجز؛ لأن الفصاحة فيه وصلت حد الإعجاز، ونوعًا يشمل السور القصار، وهو معجز أيضًا، لكنه ليس معجزًا لفصاحته، بل لمنع الله القوم أن يأتوا بمثله، وهذا هو القول بالصرفة[2] فيكون الإمام الرازى قد لفق فى هذا الموضع بين القول بأن القرآن معجز لفصاحته، والقول بأنه معجز، لأن الله صرف عقول الناس عن الإتيان بمثله، ولن أعرض فى هذا الصدد لبسط القول فى قضية الصرفة؛ لأنها خارجة عن نطاق هذا العمل.

---

(١) التفسير الكبير ١/١/١٢٨.

(٢) نسب الإمام الزركشى القول بالصرفة لإبراهيم النظام، شيخ الجاحظ، وأحد رؤوس المعتزلة، وذكر أن مؤداه صرف الله العرب عن معارضة القرآن، وسلب عقولهم، وكان مقدورًا لهم، لكن عاقهم أمر خارجى، فصار كسائر المعجزات، وقد حكم عليه الزركشى بأنه قول فاسد؛ لأنه يجعل القرآن غير معجز، والإجماع منعقد على أنه معجز، ويؤدى إلى زوال الإعجاز بزوال زمان التحدى، وخلو القرآن من الإعجاز... ينظر البرهان فى علوم القرآن ٢/٩٣، ٩٤.

ولكن الأمانة تقتضينى أن أكمل موقفه من قضية إعجاز القرآن التى تناولها عند آيات التحدى حتى لا يبدو هذا الموقف الذى نقلته من أحد المواضع دون بقيتها ناقصًا مشوهًا، وقد بدا لى بعد أن جمعت أطراف كلامه الذى كتبه عند تفسير آيات التحدى أن موقفه من قضية إعجاز القرآن كان متأرجحًا بين القول بإعجاز القرآن لفصاحته، والقول بإعجازه للصرفة، فكان أحيانًا يلفق بينهما، وتارة يفضل القول بإعجازه لفصاحته، ويذم مذهب الصرفة، ويربأ بالقرآن عنه.

وقد رأينا كيف لفق بينهما عند تفسير آية البقرة، وقد لفق بينهما أيضًا عند تفسير آية الطور ﴿ **فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ** ﴾ [الطور: ٣٤] لكن على صورة أخرى هى أن القرآن كله معجز بالأمرين جميعًا: فصاحته، وصرف الله عقول الناس عن الإتيان بمثله، دون أن يفرق بين قصار السور، وطوالها فقد قال:

«قد ذكرنا أن القرآن معجز، ولا شك فيه، فإن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثل ما يقرب منه عن التحدى، فإما أن يكون معجزًا لفصاحته، وهو مذهب أكثر أهل السنة، وإما أن يكون معجزًا لصرف الله عقول العقلاء عن الإتيان بمثله، وعقله ألسنتهم عن

النطق بما يقرب منه، ومنع القادر من الإتيان بالمقدور كإتيان الواحد بفعل لا يقدر عليه غيره... وهذا مذهب بعض المتكلمين، ولا فساد فيه، وعلى أن يقال هو معجز بهما جميعًا»[1].

فقد ساوى بين القول بإعجاز القرآن لفصاحته، وإعجازه بالصرفة، وجعله معجزًا بهما معًا، ولم يفضل أحدهما على الآخر، بينما نجده عند تفسير آية هود ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ**﴾ [هود: ١٣].

يذكر عدة أقوال فى إعجاز القرآن منها القولان المذكوران، ويفضل القول بإعجاز القرآن لفصاحته، ويزرى بمذهب الصرفة؛ لأنه يؤدى إلى جعل الكلام الركيك الردىء أفضل من الفصيح الجيد فيقول:

«... والمختار عندى وعند الأكثرين أنه معجز بسبب الفصاحة، واحتجوا على صحة قولهم بهذه الآية، لأنه لو كان وجه الإعجاز هو كثرة العلوم، أو الإخبار عن الغيوب، أو عدم التناقض، لم يكن لقوله (مفتريات) معنى، أما إذا كان وجه الإعجاز هو الفصاحة، صح ذلك؛ لأنه فصاحة الفصيح تظهر بالكلام سواء

(١) التفسير الكبير ١٤/ ٢/ ٢٥٨.

كان صدقًا أو كذبًا، وأيضًا لو كان الوجه فى كونه معجزًا هو الصرف لكان دلالة الكلام الركيك النازل فى الفصاحة على هذا المطلوب أوكد من دلالة العالى فى الفصاحة»[1].

هذه خلاصة موقفه من قضية إعجاز القرآن، ولا يدرى على وجه اليقين أى هذه الأقوال يمثل موقفه الذى ركن إليه، واتخذه معتقدًا له، خصوصًا أنه لا يمكن الاحتكام فى هذا الأمر إلى تاريخ تفسيره لسور القرآن؛ لأنه كان لا يلتزم تفسيرها مرتبة حسب وجودها فى المصحف الشريف[2].

والذى تميل إليه النفس، ويرتاح إليه العقل أن قوله الأخير الذى ذكره عند تفسير آية هود، هو الذى يمثل موقفه الذى

---

(١) التفسير الكبير ٩/١/٢٠٢، ٢٠٣.

(٢) الدليل على ذلك أنه كان كثيرًا ما يحيل على تفسير سورة متأخرة عن السورة التى يقوم بتفسيرها، أو العكس - فمثلاً - أحال وهو فى تفسير سورة البقرة على تفسير سورة الشعراء فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ [البقرة: ٧] «أن محل العلم هو القلب» وأضاف قائلاً «واستقصينا بيانه فى قوله تعالى ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ... ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] فى سورة الشعراء» التفسير الكبير ١/٢/٥٩ وينظر المباحث البيانية فى تفسير الفخر الرازى ص ٣٢-٣٩ رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية اللغة العربية بالقاهرة، لكاتب هذه السطور، طبعت هذه الرسالة بعد ذلك وتباع فى مكتبة وهبة برقم إيداع ١٣٠٩٩/٩٩.

ارتضاه، وثبت عليه فؤاده؛ لأنه علل اختيار القول بأن القرآن معجز لفصاحته، وبين السبب فى تفضيله على القول بالصرفة، وهذا يعتبر عدولاً منه عن مذهب الصرفة، ويستبعد – فيما أحسب – من إمام كبير مثل الإمام الرازى أن يعدل عن قول لا يتناسب ومنزلة القرآن؛ لأنه – كما قال – يجعل «دلالة الكلام الركيك النازل فى الفصاحة... أوكد من دلالة العالى من الفصاحة» – ثم يعود إلى القول به مرة أخرى.

وقد حمدت الله سبحانه وتعالى أن وفقنى إلى هذا الرأى، وازددت له حمداً عندما وجدت الإمام الزركشى قد وافق خاطره خاطرى، وعد من الأقوال التى قيلت فى إعجاز القرآن القول بإعجازه لفصاحته، وذكر أن هذا الرأى اختاره الإمام فخر الدين – يقصد الرازى–[1].

ولكن يبدو أنه وقف على هذا الاختيار من كتابه (نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز) فقد عقد فى مطلعه فصلاً (فى أن القرآن معجز وأن الإعجاز فى فصاحته)[2] استعرض فيه مذاهب

---

(١) البرهان فى علوم القرآن ٢ / ٩٨.
(٢) نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز، للإمام فخر الدين الرازى ص٥ مطبعة الآداب ١٣١٧هـ.

الناس فى إعجاز القرآن، واختار كونه معجزاً لفصاحته، بعد أن فند المذاهب الأخرى، ومنها مذهب الصرفة، وقد حكم عليه بالفساد...[1] ولو أن الإمام الزركشى استخلص موقفه مما كتبه فى تفسيره، لعلم أنه اختار فى بعض مواضعه القول بالصرفة، وقال عنه فى أحد المواطن – كما سبق – «... وهذا مذهب بعض المتكلمين، ولا فساد فيه»[2] مما يدل على تأرجح رأيه فى هذه القضية – كما قلت من قبل – ويؤكد ذلك مما نحن بسبيله أيضًا أنه قال فى (نهاية الإيجاز...) «إن التحدى وقع بكل سورة»[3] من سورة القرآن، وهذا يتعارض مع ما ذكره فى تفسيره – وقد أوردته قريبًا – ولا زال ماثلاً فى أذهاننا من أن التحدى كان بالسور الطوال، دون القصار، ولعل ما قاله فى (نهاية الإيجاز...) هو رأيه الأخير الذى لم يعدل عنه، حتى يكون متسقًا مع كلامه

---

(١) نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز، للإمام فخر الدين الرازى ص٥ مطبعة الآداب ١٣١٧هـ.

(٢) ربما يكون مراد الإمام الرازى بقوله: «... لا فساد فيه» أنه آية دالة على صدق رسول الله ﷺ؛ لكونه أمرًا خارجًا عن مجارى العادات، ناقضًا لها... كما ذكر الخطابى فى رسالته (بيان إعجاز القرآن) ص٢٣ مع أنه يرفض القول بالصرفة، وإن كان قول الإمام الرازى بعد ذلك: «... هو معجز بهما جميعا» لا يساعد على هذا الفهم.

(٣) نهاية الإيجاز ص٧.

ند آية هود، – واعتبرته ممثلاً لموقفه – وحتى يكون متلائمًا أيضًا
ع ما ارتآه جمهور علماء المسلمين من (أن أقل ما يعجز عنه
لقرآن السورة، قصيرة كانت أو طويلة، أو ما كان بقدرها)[1].

وهنا يعن لى هذا التساؤل هل يستوى التحدى والإعجاز
بسورة البقرة، وسورة الكوثر – مثلاً – ؟

الذى عليه أهل السنة أنه «إذا كانت الآية بقدر حروف سورة، وإن كانت سورة الكوثر، فذلك معجز»[2] «وقد يدل ذلك – والله أعلم – على أن السورة الكبيرة كسورة البقرة – مثلاً – أقوى فى التحدى، وأبلغ فى الإعجاز. ولم يقع التحدى بالآية وحدها، لأن الآية قد تكون كلمة واحد كآية ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٤]... وهذه بمفردها يستطيع كل واحد معارضتها، والإتيان بمثلها»[3] لأن الفصاحة لا تكون فى الكلم أفرادًا، وإنما تكون إذا ضم بعضها إلى بعض[4].

(١) إعجاز القرآن، للباقلانى ص ٢٥٤ تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر، الطبعة الرابعة، دار المعارف. والبرهان فى علوم القرآن، للزركشى ٢/١٠٨.
(٢) المرجعان السابقان فى الموضعين.
(٣) مجلة التضامن الإسلامى، إصدار وزارة الحج والأوقاف بمكة المكرمة ص٤٨ مقال دكتور محمد رواس قلعة جى، عدد صفر ١٤١٠هـ.
(٤) دلائل الإعجاز ص ٤٦٧ تحقيق الأستاذ/ محمود شاكر.

مرجع الضمير فى (مثله)

من المعلوم أن الضمير فى (مثله) ورد فى معظم آيات التحدى، ففى سورة البقرة ﴿ ... فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ وفى سورة يونس ﴿ ... فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ وفى سورة هود ﴿ ... فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ ... ﴾ وفى سورة الطور ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ .

وواضح من السياق فى سورة يونس وهود أن الضمير فى مثله عائد إلى القرآن، ولذلك لم أقرأ فى كلام من رجعت إليهم من المفسرين من جعل الضمير فى مثله فى السورتين راجعًا إلى غير القرآن .

يقول صاحب الكشاف فى آية يونس « ومعنى بسورة مثله أى شبيهة به فى البلاغة وحسن النظم »[1] .

ويقول أبو حيان فى الآية نفسها « ... فأتوا بسورة مثله فى البلاغة وحسن النظم »[2] .

---

(١) الكشاف ٢ / ١٩١ .
(٢) البحر المحيط ٥ / ١٥٨ .

والأمر في سورة هود أظهر من أن يستدل عليه، فواضح من قوله ﴿بعشر سور مثله﴾ أن الضمير عائد إلى القرآن، وفى سورة الطور على القراءة المشهورة ﴿بحديث مثله﴾ بتنوين حديث الضمير عائداً إلى القرآن ضرورة أن الحديث غير المحدث القائل، أما على قراءة إضافة حديث إلى مثله، فقد جعله الإمام القرطبى عائداً إلى النبى ﷺ، والمراد بالحديث القرآن؛ لأنه مبعوث به(١).

أما مرجع الضمير فى آية البقرة، فقد أورد العلماء فيه أقوالاً شتى، وآراء متعددة حتى أبعد بعضهم، فجعله راجعاً إلى التوراة، والإنجيل، والزبور، والأنداد(٢).

وأشهر الآراء أنه عائد إلى القرآن، أو إلى رسول الله ﷺ، وقد رجح كثير من العلماء أنه راجع إلى القرآن، أسوة بالضمير المشاكل له فى الآيات الأخرى، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، يقول صاحب الكشاف وهو يتكلم عن الضمير في آية البقرة: «ورد الضمير إلى المنزل أوجه لقوله تعالى: ﴿فأتوا بسورة مثله﴾ ﴿فأتوا بعشر سور

---

(١) تفسير القرطبى / ٦٢٤٣، ٦٢٤٤ ط. دار الشعب.

(٢) حكى هذه الآراء عن بعضهم الكرمانى فى أسرار التكرار فى القرآن ص٢٤، ٢٥ تحقيق عبدالقادر عطا دار الاعتصام ١٩٧٦م. والإمام القرطبى فى تفسيره ص٢٠٠ وابن عطية فى تفسيره المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ١ /١٩٥ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧٤م.

مِّثْلِهِ﴾ ﴿عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ ولأن القرآن جدير بسلامة الترتيب، والوقوع على أصح الأساليب، والكلام مع رد الضمير إلى المنزل أحسن ترتيبًا، وذلك أن الحديث فى المنزل لا فى المنزل عليه، وهو مسوق إليه، ومربوط به، فحقه ألا يفك عنه برد الضمير إلى غيره، ألا ترى أن المعنى وإن ارتبتم فى أن القرآن منزل من عند الله، فهاتوا أنتم نبذًا مما يماثله ويجانسه، وقضية الترتيب لو كان الضمير مردودًا إلى رسول الله ﷺ أن يقال: وإن ارتبتم فى أن محمدًا منزل عليه، فهاتوا قرآنًا من مثله، ولأنهم إذا خوطبوا جميعًا، وهو الجم الغفير بأن يأتوا بطائفة يسيرة من جنس ما أتى به واحد منهم كان أبلغ فى التحدى من أن يقال لهم: ليأت واحد آخر بنحو ما أتى به هذا الواحد..»[1].

ولله در صاحب الكشاف، وأعظم ببيانه ودقته فى إصابة المعنى المراد، فمع تفضيله رجوع الضمير إلى القرآن، وإيثاره على ما عداه إلا أنه لم يجعله حتمًا لازمًا، وأمرًا جازمًا، بل حكم بأنه أوجه؛ لأن سياق الآية ليس قاطعًا فى هذا الشأن، وإلا ما قال بالرأى الآخر علماء لهم وزنهم، وتثنى الخناصر عند ذكرهم.

وجوز الإمام الرازى عود الضمير إلى القرآن، أو إلى

---

(١) الكشاف ١/٤٨، ٤٩.

رسول الله ﷺ المعبر عنه بعبدنا في الآية، واقتفى أثر الزمخشري في ترجيح كون الضمير راجعًا إلى القرآن، وذكر نفس الحجج التي اعتمد عليها الزمخشري في ذلك الترجيح، وزاد عليها حججًا أخرى فقال: «الضمير في قوله (من مثله) إلى ماذا يعود وفيه وجهان أحدهما: أنه عائد إلى ما في قوله ﴿ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ أي فأتوا بسورة مما هو على صفته في الفصاحة وحسن النظم. والثاني: أنه عائد إلى (عبدنا) أي فأتوا ممن هو على حاله من كونه بشرًا أميًّا لم يقرأ الكتب، ولم يأخذ من العلماء والأول مروي عن عمر، وابن مسعود، وابن عباس، والحسن، وأكثر المحققين ويدل على الترجيح له وجوه: أحدها: أن ذلك مطابق لسائر الآيات الواردة في باب التحدي لاسيما ما ذكره في يونس ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ وثانيها: أن البحث إنما وقع في المنزل، لأنه قال ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا... ﴾ [البقرة: ٢٣] فوجب صرف الضمير إليه، ألا ترى أن المعنى وإن ارتبتم في أن القرآن منزل من عند الله، فهاتوا شيئًا مما يماثله، وقضية الترتيب لو كان الضمير مردودًا إلى رسول الله ﷺ أن يقال وإن ارتبتم في أن محمدًا [1] منزل عليه فهاتوا قرآنًا من مثله[2].

---

(١) في التفسير (محمد) دون نصب، والصواب ما أثبته، ولعله خطأ مطبعي.

(٢) التفسير الكبير.

وهذه حجج الزمخشرى وكلماته التى سبق ذكرها لم يضف إليها الإمام الرازى إلا قليلاً، وحتى هذه الإضافات جاءت أحيانًا قلقة فى مكانها، غير ملائمة لسياقها، كقوله (فوجب صرف الضمير إليه) أى إلى القرآن، وكان المناسب لسياق كلامه أن يقول - مثلاً - فحسن صرف الضمير إليه؛ لأن كلامه مسوق أصلاً لترجيح أحد الوجهين على الآخر.

ثم يتابع الإمام الرازى كلامه مرجحًا عودة الضمير فى (مثله) إلى القرآن قائلاً: « ... وثالثها: أن الضمير لو كان عائداً إلى القرآن، لاقتضى كونهم عاجزين عن الإتيان بمثله، سواء اجتمعوا أو انفردوا، أو سواء كانوا أميين، أو كانوا عالمين محصلين، أما لو كان عائداً إلى محمد ﷺ، فذلك لا يقتضى إلا كون أحدهم من الأميين عاجزاً[1] عنه؛ لأنه لا يكون مثل محمد إلا الشخص الواحد الأمى، فأما لو اجتمعوا وكانوا قارئين، لم يكونوا مثل محمد، لأن الجماعة لا تماثل الواحد، والقارئ لا يكون مثل الأمى، ولا شك أن الإعجاز على الوجه الأول أقوى. ورابعها: أنَّا لو صرفنا الضمير إلى القرآن فكونه معجزاً إنما يكمل بتقرير كمال

(١) فى التفسير (عاجزين) وذلك غير مناسب للسياق، والمناسب ما أثبته، ولعله خطأ مطبعى، أو من النساخ.

حاله فى كونه أميًا بعيداً عن العلم، وهذا وإن كان معجزاً أيضاً إلا أنه لما كان لا يتم إلا بتقرير نوع من النقصان فى حق محمد عليه السلام، كان الأول أولى. وخامسها: أنَّا لو صرفنا الضمير إلى محمد عليه السلام لكان ذلك يوهم أن صدور مثل القرآن ممن لم يكن مثل محمد فى كونه أميًا ممكن، ولو صرفناه إلى القرآن، لدل على أن صدور مثله[1] من الأمى وغير الأمى ممتنع فكان هذا أولى[2].

وهكذا رجح الإمام الرازى رجوع الضمير فى (مثله إلى القرآن، وساق الحجج والبراهين المؤيدة لذلك الترجيح، وقد ركز فى كلامه الأخير على أمية رسول الله ﷺ، وألمح إلى أن أميته قد يكون فيها نوع من النقص فى حقه).

والذى يبدو لى أن أميته ﷺ مصدر مدح، وليس فيها شائبة من عيب أو قدح، وقد ذكرها الله في معرض المدح لرسوله ﷺ في قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ** ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فلا مجال للتحرج من ذكرها، أو إضافتها إليه ﷺ.

---

(١) فى التفسير (مثل) فقط ولعل الضمير سقط أثناء الطباعة، ووجوده هوالمناسب للسياق.

(٢) التفسير الكبير.

وقد رجح كثير من المفسرين عودة الضمير فى (مثله) إلى القرآن، ولا أجد حاجة إلى ذكر المزيد من كلامهم[1].

وحكم بعضهم بأن رجوع الضمير إلى القرآن هو الصحيح يقول الطبرسى: « ... ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ أى من مثل القرآن وعلى قول من يقول الضمير فى مثله عائد إلى عبدنا فالمعنى فأتوا بسورة من بشر من مثله لا يحسن الخط والكتابة، والصحيح هو الأول؛ لقوله تعالى فى سورة أخرى ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ [الطور: ٣٤]

وقوله: ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ [يونس: ٣٨] وقوله: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ [الإسراء: ٨٨] يعنى فأتوا بسورة مثلما أتى به محمد فى الإعجاز من حسن النظم وجزالة اللفظ »[2].

ومعنى ذلك أنه يرى أن عودة الضمير إلى (عبدنا) رسول الله ﷺ ليس صحيحاً من القول.

---

(١) ينظر – مثلاً – المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية ١ / ١٩٤ والبحر المحيط ١ / ١٠٤ وتفسير القرطبى / ٢٠٠ ط. دار الشعب.

(٢) مجمع البيان فى تفسير القرآن ١ / ١٣٤ دار مكتبة الحياة – بيروت.

ومن جهة أخرى وجدت من المفسرين من يستحسن رجوع الضمير إلى رسول الله ﷺ ويستملحه فالإمام الألوسي يقول :

« ... والحق عندي أن رجوع الضمير إلى كل من العبد و(ما) أمر ممكن، ودائرة التأويل واسعة، والاستحسان مفوض إلى الذوق السليم، والذي يدركه ذوقي، ولا أزكي نفسي أن[1] ... رجوع الضمير إلى العبد أحلى »[2].

والشيخ محمد عبده – أيضًا – فضل رجوع الضمير إلى (عبدنا) في الآية رسول الله ﷺ، وقد استدل على ذلك بوجود (من) في الآية قبل ﴿ مِّثْلِهِ ﴾ فقد جاء في تفسير المنار وقوله تعالى ﴿ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ فيه وجهان أحدهما أن الضمير في مثله للقرآن المعبر عنه بقوله : ﴿ مِّمَّا نَزَّلْنَا ﴾ والثاني أنه لعبدنا قال شيخنا[3] وهو أرجح بدليل ﴿ مِّن ﴾ الداخلة على ﴿ مِّثْلِهِ ﴾ الدالة على النشوء،

---

(١) تصرفت بحذف الضمير من (أن) ابتعادا عن ذكر ما لاحاجة إليه هنا.

(٢) روح المعاني ١ / ١ / ١٩٤ ، ١٩٥ .

(٣) المقصود به الشيخ محمد عبده، ومعلوم أن الذي يكتب عنه الشيخ محمد رشيد رضا، وقد قال في نفس الصفحة : (هذا محصل سياق الأستاذ في الدرس وقد قرأه بعد كتابتنا له).

أى فإن كان أحد ممن يماثل الرسول بالأمية يقدر على الإتيان بسورة فليفعل... فهو يقول: إن كنتم صدقتم فى أنكم مرتابون، فلديكم ما يمحص الحق فجدوا فى الفكر، ولا تتوانوا فى النظر، وتدبروا هذا الكتاب، وها هو ذا معروض عليكم، وائتوا بسورة واحدة من مثل ما جاء به هذا النبى الأمى... وترجيحه كون الضمير في مثاله[1] للنبى ﷺ خاص بهذه الآية...»[2].

فالقول برجوع الضمير فى (مثله إلى رسول الله ﷺ ليس قولاً مجهولاً، أو مغموراً؛ فهو - كما رأينا - جائز عند كثير من المفسرين، وأثير مفضل عند بعضهم[3] ولكن الذى يتراءى لى بعد التأمل فى كلام المفسرين حول مرجع هذا الضمير أن رجوعه إلى القرآن أوجه كما قال صاحب الكشاف؛ لأن الكلام فى المنزَّل، لا فى المنزَّل عليه، والقرآن جدير بسلامة الترتيب، والوقوع على

---

(١) لعلها (مثله) كما جاءت فى الآية.

(٢) تفسير المنار ١ / ١٦٠.

(٣) أذكر فى هذا الصدد أنى حضرت منذ سنوات قليلة مناقشة رسالة دكتوراه فى كلية اللغة العربية بالقاهرة، وتطرق أحد الأساتذة عضو لجنة المناقشة إلى جواز عودة الضمير فى الآية المذكورة إلى رسول الله ﷺ، فارتفعت أصوات الحاضرين فى القاعة يستنكرون هذا الرأى ويستبعدونه، وهو مستفيض متداول فى كتب التفسير.

ـح الأسـاليب، ويؤيد هذه النظرة أن الكلام فى مطلع السـورة
ان فى نفى الريب عن القرآن ﴿ **ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى مُتَّقِينَ** ﴾ [البقرة : ٢] .

وفى الآية التى فيها الضمير ﴿ **مِّن مِّثْلِهِ** ﴾ كأن الله يقول
ـم : إن كان قد بقى عندكم ريب فى هذا الكتاب الذى نفينا عنه
ريب، فـهـاتوا أنتم سـورة من مـثل ذلك الكتـاب، وهيـهـات
يهات!! فالحديث موصول عن الكتاب، ومَعْنىٌّ به .

* * *

إيثار آية البقرة بوجود (من) دون سواها

انفردت آية البقرة عن غيرها من آيات التحدى بوجود (من) داخلة على (مثله) فى قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] على حين جاءت آية يونس دون (من) فى قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨] وأتت آية هود أيضًا دون (من) فى قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾ [هود: ١٣] وكذلك جاءت آية الطور مجردة منها فى قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ [الطور: ٣٤] فَلِمَ أوثر نظم آية البقرة بوجود (من)؟

وهل لوجودها فى تلك الآية مزية وفضل على ما عداها من الآيات المناظرة لها؟ ولما كان من البدهى أن كل حرف فى كتاب الله له فائدة ترجى من ورائه، وتقتضيه سياقاته التى تكتنفه، وتحيط بشتى ظروفه وملابساته، فقد بذل بعض العلماء جهدهم لمعرفة سر وجودها، واستلهام جدواها فى تلك الآية الكريمة.

ونظرًا لوجود آية البقرة فى صدر القرآن ومبتدئه، فقد اعتبر

كرمانى) – رحمه الله – أن وجود (من) فى هذا الموضع يدل
ى أن التحدى واقع على جميع سور القرآن ، ولو وجدت (من)
سورة أخرى، لكان التحدى واقعًا على بعض السور دون بعض
د قال : « قوله تعالى : ﴿ فَأْتُوا[1] بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ بزيادة (من)
هذه السورة، وفى غيرها (بسورة مثله) لأن من تدل على
بعيض، ولما كانت هذه السورة سنام القرآن، وأوله بعد الفاتحة
سن دخول (من) ليعلم أن التحدى واقع على جميع سور القرآن
ن أوله إلى آخره، وغيرها من السور لو دخلها (من) لكان التحدى
اقعًا على بعض السور دون بعض، ولم يكن ذلك بالسهل »[2].

وقد نقل الإمام الزركشى عبارة الكرمانى[3] السالفة الذكر
نصها إلا قليلاً من الكلمات فقال : فى البقرة ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن

(١) فى كتابه (قل فأتوا . . .) والصواب أن آية البقرة ليس فيها (قل) ولعل ذلك سهو من النساخ ومن المحقق أيضًا.

(٢) أسرار التكرار فى القرآن، للكرمانى ص ٢٤ .

(٣) لم يصرح الزركشى بالنقل عن الكرمانى، وقد استدللت على هذا النقل بالتشابه الذى يكاد يكون تامًا بين النصين، والكرمانى سابق على الزركشى، لأنه كان فى حدود الخمسمائة كما جاء فى معجم الأدباء ١٩ / ١٢٠ دار الفكر – بيروت ١٩٨٠م بينما توفى الزركشى عام ٧٩٤هـ كما ذكر محقق الكتاب فى مقدمته ١ /٥ .

مِّثْلِهِ﴾ وفى غيرها بإسقاط (من) لأنها للتبعيض، ولما كانت سور البقرة سنام القرآن وأوله بعد الفاتحة حسن دخول (من) فيها ليعلد أن التحدى واقع على جميع القرآن من أوله إلى آخره، بخلاف غيرها من السور؛ فإنه لو دخلها (من) لكان التحدى واقعًا على بعض السور دون بعض، ولم يكن ذلك بالسهل[1] ويظهر من عدم تعقيب صاحب البرهان على هذه العبارة أنه راض عن فحواها، ومقتنع بأن وجود (من) فى آية البقرة، وفى بداية القرآن يجعل هذا الوجود ساريًا على جميع سور القرآن، ولو أن (من) جاءت فى سورة أخرى لكان التحدى فى بعض السور دون بعض ولعله يقصد من بعض السور أن التحدى حينئذ يكون خاصًّا بالسورة التى فيها (من) وحدها، أو هى وما بعدها إلى آخر القرآن .

ويبدو لى – والله أعلم – أن هذا التعليل الذى ذهب إليه الكرمانى لوجود (من) فى آية البقرة لا يتناسب مع جلال القرآن، ودقة نظمه، وإحكام بيانه، لأن هذا يجعله شبيهًا بكلام الناس الذين يكتفون فى كتبهم بذكر بعض الكلمات، والعبارات فى موضع دون آخر، اتكالاً على ما سبق ذكره، والقرآن لا تغنى فيه

---

(١) البرهان فى علوم القرآن ١ / ١١٥ .

سورة عن سورة، ولا كلمة عن كلمة؛ فكل فى موضعه نسيج وحده، وفرد في محاسنه، ونظم كل سورة شيء خاص بها لا يتعداها إلى غيرها.

وقد نظر الإمام الرازى إلى (من) نظرة مخالفة، فهى خاصة بآية البقرة، ولا ينسحب معناها على سور القرآن جميعها - كما قال الكرمانى - ولكنه اتخذها دليلاً على أن الضمير فى (مثله) راجع إلى رسول الله ﷺ المعبر عنه بـ ﴿ عَبْدِنَا ﴾ فى الآية فقد قال عند تفسير آية يونس:

« ... لِمَ قال في سورة البقرة ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ وقال ههنا - أى فى آية يونس - ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾؟ والجواب أن محمداً عليه السلام كان رجلاً أميًّا لم يتلمذ لأحد، ولم يطالع كتابًا فقال فى سورة البقرة: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ يعنى فليأت إنسان يساوى محمداً عليه السلام فى عدم التلمذ، وعدم مطالعة الكتب، وعدم الاشتغال بالعلوم بسورة تساوى هذه السورة... »[1].

ويلاحظ أنه جعل الضمير فى ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ هنا عائداً إلى رسول الله ﷺ قولاً واحداً لوجود (من) وهذا مخالف لما ذكره

(١) التفسير الكبير ٩ / ١ / ١٠١.

هناك عند تفسير آية البقرة في موضعها، حيث جوز رجوع الضمير إلى القرآن، وإلى رسول الله ﷺ، ورجح رجوعه إلى القرآن مستنداً إلى أدلة قوية، وقد عرضت إليها، وبسطت القول فيها عند الكلام على مرجع الضمير في ﴿مِّثْلِهِ﴾ ولعله عدل عن رأيه الذى ذكره هناك، وركن إلى هذا الرأى الجديد، وقد ذكرت - فيما سبق - أيضاً أن الشيخ محمد عبده اعتبر وجود (من) فى آية البقرة دليلاً على رجحان عودة الضمير فى ﴿مِّثْلِهِ﴾ إلى ﴿عَبْدِنَا﴾ فى الآية - ﷺ - لأنها دالة «على النشوء أى فإن كان أحد ممن يماثل الرسول فى الأمية يقدر على الإتيان بسورة فليفعل»[1].

والذى يظهر لى - والله أعلم - أن وجود (من) فى آية البقرة، وهى آخر ما نزل من آيات التحدى ينبئ أن القدر المتحدى به فى هذه السورة أقل التحديات درجة ، فالمطلوب منهم الإتيان بسورة أى سورة شريطة أن تشتمل على الحد الأدنى من مثلية القرآن، وبداية ما يصح أن تطلق عليه هذه المثلية[2] «والمماثلة تقع بأدنى مشابهة» كما قال أبو حيان[3].

---

(١) تفسير المنار ١/١/١٦٠.

(٢) رأى كثير من المفسرين أن (من) فى الآية يمكن أن تكون ابتدائية. ينظر مثلا: تفسير الطبرسى ١/١٣٤.

(٣) البحر المحيط ١/١٠١.

وقد تطرق إلى هذه الوجهة التى ارتضيتها أحد الباحثين، وهو يتحدث عن مراتب التحدى فقال حول التحدى فى آية البقرة « ... ففى هذه المرة تنزل معهم من طلب المماثل إلى طلب شيء مما يماثل فهو لا يطلب منهم المماثلة التامة بل يطلب سبحانه منهم أن يأتوا بشيء من جنس المماثلة على وجه التقريب، لا التحديد، وهذا منتهى ما يمكن من التنزل، ولذا كان آخر صيغ التحدى نزولاً، فلم يجئ التحدى بلفظ ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ إلا فى سورة البقرة المدنية، وسائر مراتب التحدى بلفظ مثله ...»[1].

وهذا التنزل لا يخرج الكلام الذى يتمثل فيه الحد الأدنى من مثلية القرآن عن نطاق البلاغة والإعجاز؛ لأن الطرف الأعلى للبلاغة، وما يقرب منه مما لا يمكن معارضته ينطبق عليهما معًا حد الإعجاز[2].

والقرآن الكريم فيه ما هو متناه فى البلاغة، وما هو دون ذلك، وكلاهما وقع به الإعجاز[3].

---

(١) قضية الإعجاز القرآنى وأثرها فى تدوين البلاغة العربية. للدكتور عبدالعزيز عرفة ص٦٢.

(٢) المطول، لسعد الدين التفتازانى ص٣١ مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠هـ.

(٣) مواهب الفتاح، لابن يعقوب المغربى ١ / ١٤٠ بتصرف قليل ضمن شروح التلخيص.

ومن هذا المنطلق يمكن القول دون حرج إن التحدى بسورة في آية البقرة يخالف التحدى بسورة في آية يونس، وإن جاءت الكلمتان على صورة واحدة؛ لوجود (من) في الأولى دون الآخرة.

* * *

وصف عشر سور بمفتريات ودلالته

يحسن قبل الكلام عن وصف عشر السور بكونها (مفتريات) ودلالة ذلك الوصف أن نلقى الضوء على هذه السور، وهل هى سور معينة معروفة بأسمائها، أو سور مطلقة شائعة فى جميع سور القرآن؟ فقد ورد عن بعضهم أنها سور معينة تبدأ من سورة البقرة، وتختتم بسورة هود، فقال الكرمانى: «وذهب جماعة من المفسرين إلى أن قوله فى هود ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾ معناه مثل البقرة إلى هود، وهى العاشرة، ومعلوم أن هود مكية وأن البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، والتوبة مدنيات نزلن بعدها»[1].

وقد نسب أبو حيان هذا القول إلى ابن عباس – رضى الله عنهما – ثم استبعده منه فقال: «... روى عن ابن عباس أن السور التى وقع بها طلب المعارضة لها هى معينة: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال،

(١) أسرار التكرار فى القرآن ص٢٣.

والتوبة، ويونس، وهود، فقوله مثله أى مثل هذه عشر السور، وهذه السور أكثرها مدنية، فكيف تصح الحوالة بمكة على ما لم ينزل بعد، ولعل هذا لا يصح عن ابن عباس»[1] ولعل الكرمانى يقصد من قوله (جماعة من المفسرين) ابن عباس، ومن تابعه على رأيه، وهى فى كلام الكرمانى، وما روى عن ابن عباس تشمل السور من البقرة إلى هود، فالغاية داخلة فيها، ولكن الكرمانى ذكر فى موضع آخر من كتابه أنها تبدأ من الفاتحة إلى هود فقال: «... وما فى هود إشارة إلى ما تقدمها من أول الفاتحة إلى سورة هود، وهو عشر سور»[2].

وعليه لا تكون سورة هود داخلة فيها، وسواء كانت هود داخلة فيها، أو خارجة عنها، فإنه رأى مستبعد، كما أشار أبو حيان، ويبدو أنه كان يميل إلى كونها عشراً مطلقة، تنطبق على أى عشر من القرآن قصيرة كانت أو طويلة، أو مختلفة، وهذا هو الذى يتفق مع النظم القرآنى ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾ على إطلاقها، دون تعريف أو تحديد، ولذلك قال الإمام الألوسى: «... وأنه

---

(١) البحر المحيط ٥/٢٠٨.

(٢) أسرار التكرار فى القرآن ص ١٠٣.

ليس المراد تعجيزهم عن الإتيان بعشر سور مماثلات لعشر معينة من القرآن »[١].

وقد وصفت عشر السور المتحدّى بها في سورة هود بوصفين أولهما (مثله) وثانيهما (مفتريات) وقدم الوصف بمثله على الوصف بمفتريات (لأنه لو عكس الترتيب، لربما توهم أن المراد هو المماثلة في الافتراء »[٢].

وكثير من المفسرين على أن المثلية المتحدّى بها هي المثلية في بلاغته وحسن نظمه[٣] وأسلوبه المعجز[٤] وحسن صياغته[٥] وحسن بيانه وبراعته[٦] وأحيانًا يضيف بعضهم إلى ما قاله مما سبق المعنى أو قوة المعنى[٧] أو جودة المعنى[٨] وجزالته[٩] وهنا يبدو لنا هذا التساؤل : هل التحدى بالقرآن كان ببلاغته،

---

(١) روح المعاني ٤ / ١٢ / ٢٠.
(٢) تفسير أبي السعود ٢ / ٢ / ١٩١، ١٩٢.
(٣) الكشاف ٢ / ١٩١.
(٤) روح المعاني ١ / ١ / ١٩٣.
(٥) تفسير أبي السعود ٢ / ٢ / ١٤٦.
(٦) مجمع البيان في تفسير القرآن، للطبرسي ٢٧ / ٣٤.
(٧) تفسير أبي السعود ٢ / ٢ / ١٤٦.
(٨) مجمع البيان في تفسير القرآن، للطبرسي ٤ / ١٥ / ٩٥.
(٩) روح المعاني ٤ / ١١ / ١١٨.

وفصاحته، وحسن نظمه، وما شاكل ذلك، أو كان بهذه الأشياء مضافًا إليها ما فيه من معان سامية، أو ما فيه من جودة المعانى، وصحتها، وجزالتها؟ وللإجابة عن هذا التساؤل أقول: إن هذا موضوع رحب، متشعب الأنحاء، ألفت فيه كتب، وتناوله كثير من العلماء والباحثين على اختلاف منازعهم، ومشاربهم، وبحسب هذا العمل أن يلم إلمامة سريعة بما ذكره بعض أهل العلم حول دلالة وصف (عشر سور) بمفتريات في سورة هود.

وقد اتخذ بعض كبار الباحثين وأعلام الفكر العربى من هذا الوصف دليلاً على أن التحدى بالقرآن كان يتمثل فى بلاغته، وفصاحته، وحسن نظمه...

وهذا هو الجاحظ إمام البيانيين يرى «أن الإعجاز متصل بالنظم وحده بصرف النظر عما يحويه القرآن من المعانى، إذ طلب الله إليهم أن يأتوا بعشر سور من مثله فى النظم والروعة فى التأليف حتى ولو حوى التأليف الرائع كل باطل ومفترى لا معنى له، فما بال القرآن وقد جمع إلى النظام الرائع المعانى الفائقة»[1].

---

(١) حجج النبوة ضمن مجموعة رسائل للجاحظ، نشرها السندوبى ١٩٣٣هـ نقلاً عن (أثر القرآن فى تطور النقد العربى) دكتور محمد زغلول سلام ص ٧٧ الطبعة الثالثة. دار المعارف.

فالمطلوب منهم الإتيان بنظم مثل نظمه فى أى معنى من المعانى التى ألفوها وأجادوا القول فيها، دون تحديد، أو تقييد.

وكان الشيخ عبد القاهر الجرجانى هو المجلّى فى هذه الحلبة، والمبرز فى ميدانها الفسيح، فقد بسط القول فى هذه القضية، وبدأ وأعاد، وأطنب وأوجز، وقد بلغ من اقتناعه بأن القرآن معجز لبلاغته، وفصاحته، وحسن نظمه أنه اعتبر ذلك اتفاقًا من العقلاء حين قال: « ... ثم إنه اتفاق من العقلاء أن الوصف الذى به تناهى القرآن إلى حد عجز عنه المخلوقون هو الفصاحة والبلاغة ... »[1].

وكأنه يشير من طرف خفى إلى أن من يقول بخلاف ذلك ليس عنده مسكة من العقل، وقد بين فى بعض المواضع من رسالته (الشافية) «أن التحدى كان إلى أن يجيئوا فى أى معنى شاءوا من المعانى بنظم يبلغ نظم القرآن فى الشرف، أو يقرب منه يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: ١٣]

---

(١) دلائل الإعجاز تعليق الأستاذ محمود شاكر ص ٥٢٠.

أى مثله فى النظم، وليكن المعنى مفترى لما قلتم، فلا إلى المعنى دعيتم، ولكن إلى النظم »[١].

وكان صاحب الكشاف حريصًا عند تفسير آيات التحدى أن يركز على أن مثلية القرآن المتحدَى بها هى المثلية فى البلاغة والفصاحة وحسن النظم، وقد أتيح له من خلال تفسيره أن يطبق نظرية النظم التى ثبت قواعدها الشيخ عبدالقاهر، ولذلك نسج على منواله عند تفسير آية هود فقال: « ... فإن قلت كيف يكون ما يأتون به مثله، وما يأتون به مفترى، وهذا غير مفترى؟ قلت معناه مثله فى حسن البيان والنظم، وإن كان مفترى »[٢].

يقصد وإن كان المعنى مفترى.

وقد اختار الإمام الرازى هذا الرأى عند تفسيره آية هود، وقد ذكرته فيما سبق[٣] ومن أبين ما كتب فى هذا الاتجاه. وأوضحه ما جاء فى تفسير الطبرسى عند آية هود فقد قال: « ... (قل) يا محمد لهم ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ أى

---

(١) الرسالة الشافية / ١٤١.

(٢) الكشاف ٢ / ٢١٠.

(٣) عند الكلام على (تنكير سورة والقدر المتحدى به).

إن كان هذا مفترى على الله كما زعمتم، فأتوا أنتم بعشر سور مثله فى النظم والفصاحة مفتريات على زعمكم، فإن القرآن نزل بلغتكم، وقد نشأت أنا بين أظهركم، فإن لم يمكنكم ذلك، فاعلموا أنه من عند الله تعالى، وهذا صريح فى التحدى وفيه دلالة على جهة إعجاز القرآن، وإنما هى البلاغة والفصاحة فى هذا النظم المخصوص، لأنه لو كان جهة الإعجاز غير ذلك، لما قنع فى المعارضة بالافتراء والاختلاق »[1].

وهذا القدر الذى ذكرته من كلام أهل العلم الذين ارتضوا هذه الوجهة فيه غناء لتبيانها ولا حاجة لى الاستزادة منه.

ولكنى أود أن أشير هنا إلى رأى سبق إيراده فى هذا العمل[2] وهو بسبيل من آية التحدى فى هود، ومؤداه أن الله تحداهم أولاً بسورة مثل القرآن مماثلة تامة فى غيوب القرآن ونظمه، ووعده ووعيده، وعجزوا فى آية هود بمعارضة القرآن بعشر سور أمثاله فى النظم وحده توسعة عليهم[3].

والسؤال الذى يمكن أن يوجه إلى من ذهب إلى هذا القول.

---

(١) مجمع البيان فى تفسير القرآن ٣ / ١٢٣، ١٢٤.
(٢) فى عنوان (لا ارتباط بين آيات التحدى).
(٣) ينظر البحر المحيط ٥ / ٢٠٨، وروح المعانى ٤ / ١٢ / ٢٠، ٢١.

هو أنه إذا كان الله خفف عنهم من الإتيان بمثل سورة واحدة في كل شيء إلى أن يأتوا بعشر سور أمثاله في النظم وحده دون غيره، فإلى أي مدى يمكن أن يصل التخفيف عنهم حين يتحدون بالقرآن كله؟ أيمكن أن يتنزل معهم في التحدى إلى أن يأتوا في معارضة القرآن بكلام غث ردىء وجمجمة لا تكاد تبين؟ لاشك أن هذا الكلام لا يرضيهم، ولا يقبلون به، وينأون بالمتحدى به أن يتردى إلى هذا الدرك السحيق.

ومن ناحية أخرى فإن التحدى بجميع ما اشتمل عليه القرآن، فيما يبدو لى يعتبر تكليفًا بما فوق طاقة البشر، بل والمستحيل فى حقهم؛ لأنه لا يمكن لإنسان، وإن تربع فوق قمة العلم والمعرفة أن يخترق حجب الغيب إلى الماضى البعيد، أو المستقبل المجهول، ثم يخبر بما كان أو يكون، وأنى لبشر أن يأتى بالعقائد الصحيحة، والتشريعات السامية، والآداب العالية التى ترشد الناس فى دنياهم إلى الحياة الطيبة فيها، والنعيم المقيم فى الآخرة؟!!!

ولذلك فإن القول بأن القرآن معجز لبلاغته، وفصاحته هو القول الذى حظى بتأييد جمهور العلماء، والحذاق منهم[1].

---

(١) ينظر المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية ١ / ٧١.

وهنا أحب أن أؤكد ما أشرت إليه من قبل وهو أن الموضوع رحب، متشعب الأنحاء لا يعالجه مثل هذا العمل المحدود، فما زالت فيه قضايا كثيرة جديرة بالتناول والبحث، وهذه كلمات يسَّرها الله عز وجل ألقت شعاعًا من الضوء على آيات التحدى، وربما عدت إلى الكتابة حولها إن أنسأ الله الأجل، ومنح التوفيق والسداد، وأستغفر الله من أى كلمة شاردة، أو عبارة مقصرة.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

المصادر والمراجع

١ - المصحف.

٢ - الإتقان فى علوم القرآن، للسيوطى، ط ثالثة، دار التراث ١٤٠٥هـ.

٣ - أثر القرآن فى تطوير النقد العربى، للدكتور محمد زغلول سلام ط. ثالثة، دار المعارف.

٤ - إحياء علوم الدين، للإمام الغزالى، ط. الشعب.

٥ - أساس البلاغة، للزمخشرى.

٦ - أسرار التكرار فى القرآن، للكرمانى تحقيق عبد القادر عطا، دار الاعتصام ١٩٧٦م.

٧ - أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن، محمد أمين الشنقيطى - عالم الكتب - بيروت.

٨ - الإعجاز البيانى للقرآن، للدكتورة بنت الشاطىء - ط. ثانية، دار المعارف.

- إعجاز القرآن، للباقلانى تحقيق السيد أحمد صقر –
ط.رابعة، دار المعارف.

١ – إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعى،
ط. سابعة، المكتبة التجارية الكبرى.

١ – البحر المحيط – أبو حيان، مكتبة ومطابع النصر الحديثة،
الرياض، السعودية.

١ – البرهان فى علوم القرآن، الزركشى، تحقيق محمد
أبو الفضل، مكتبة دار التراث.

١١ – بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز،
للفيروزابادى، تحقيق الأستاذ محمد على النجار، المكتبة
العلمية، بيروت.

١٤ – بيان إعجاز القرآن، الخطابى، ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز
القرآن، ط. ثالثة، دار المعارف.

١٥ – تفسير القرطبى، ط. دار الششعب.

١٦– التفسير الكبير، للإمام فخر الدين الرازى ط. دار الفكر،
بيروت ١٩٧٨م

١٧ – تفسير المنار، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٢ .

١٨ – دلائل الإعجاز، للشيخ عبد القاهر الجرجانى، تحقيق الأستاذ محمود شاكر.

١٩– الرسالة الشافية، للشيخ عبد القاهر الجرجانى ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ط. ثالثة، دار المعارف .

٢٠ – روح المعانى، للألوسى، دار الفكر، بيروت ١٣٩٨م.

٢١ – الطراز، للعلوى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٢م.

٢٢ – الفتوحات الإلهية (حاشية الجمل على الجلالين) ط.عيسى الحلبى .

٢٣ – فتح البارى بشرح صحيح البخارى، لابن حجر العسقلانى، دار الريان، للتراث ١٤٠٧م.

٢٤ – فى ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق ١٩٩٠م.

٢٥ – القرآن يتحدى، أحمد عز الدين خلف الله، مطبعة السعادة ط. أولى ١٩٧٧م.

٢٦ – قضية الإعجاز القرآنى وأثرها فى تدوين البلاغة العربية، للدكتور عبد العزيز عبد المعطى عرفة، عالم الكتب ١٩٨٥م.

٢٧ ـ الكشاف، للزمخشرى، دار الفكر، بيروت .

٢٨ ـ المباحث البيانية فى تفسير الفخر الرازى، رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية اللغة العربية بالقاهرة .

٢٩ـ مجمع البيان فى تفسير القرآن، للطبرسى، مكتبة الحياة، بيروت .

٣٠ ـ المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٣١ ـ المطول، سعد الدين التفتازانى، مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠ هـ.

٣٢ ـ معجم الأدباء، دار الفكر، بيروت ١٩٨٠م.

٣٣ ـ معجزات الرسول، الشيخ محمد متولى الشعراوى ط . أخبار اليوم .

٣٤ ـ من بدائع النظم القرآنى، للدكتور السيد عبد الفتاح حجاب، دار الاعتصام .

٣٥ ـ مواهب الفتاح، لابن يعقوب، ضمن شروح التلخيص .

٣٦ ـــ النكت فى إعجاز القرآن، للرمانى . ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ط . ثالثة، دار المعارف .

٣٧ – نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز، الإمام فخر الدين الرازى، مطبعة الآداب ١٣١٧ هـ.

* * *

دوريـــات

١ – مجلة الأزهر عدد شوال ١٣٩٢ هـ.

٢ – مجلة الأزهر عدد رمضان ١٤٠٥ هـ.

٣ – مجلة التضامن الإسلامى، إصدار وزارة الحج والأوقاف، مكة المكرمة عدد صفر ١٤١٠ هـ.

٤ – مجلة الوعى الإسلامى عدد شوال ١٣٩٢ هـ.

* * *